كلمة الله بين صفات الذات الإلـهية

أرض مشتركة بين الفكر الإسلامي والفكر المسيحي

يقرّ المسلمون أنّ القرآن كلمة الله، ولكن في بداية التاريخ الإسلامي نشب اختلاف بين الفقهاء والمتكلمين حول ما إذا كان القرآن أبديا خالدا خلود الله أم مخلوقا. وحدث انقسام بين علماء الكلام الإسلامي إلى فريقين هما المعتزلة والأشعرية، إذ أكدّت المعتزلة أن القرآن خلقه الله، بينما أقرّت الأشعرية أنه قائم منذ الأزل في ذات الله.

وتجدر الإشارة إلى حقيقة يؤكدها القرآن الكريم والكتاب المقدّس، ألا وهي أنّ السيد المسيح "كلمة الله" التي "ألقاها إلى مريم" حسب القول القرآني (النساء 4: 171). وقد رأى كثير من المفكّرين شبها كبيرا بين السيد المسيح والقرآن في هذه الحقيقة، وقد تراءى هذا التشابه أيضا في الجدل حول أزلية كلمة الله (القرآن) في الديانة الإسلامية وأزليّة كلمة الله في الديانة المسيحية (السيّد المسيح).

نعتني في الصفحات الموالية بالكشف عن التوازي بين تصوّر الأشعري لقضيّة الذات والصفات (دون إغفال ملاحظات علماء مسلمين من مختلف المشارب الفكريّة الذين لاحظوا هذا التوازي) وتصوّر العقيدة المسيحيّة، من ناحية وبالكشف عن الاختلافات بينهما في ذلك.

ويلخّص الأستاذ يوسف كامنغ من جامعة ييل فكرته حين يعلن: "إن مواقف الأشعري التي قد نراها مختلفة مع عقيدة الثالوث المسيحيّة هي في رأيي مواقف قابلة لإعادة الفهم من أجل إقامة حوار بينها وبين التصوّر المسيحي الحقيقي للثالوث. ونجد، إلى جانب هذه الاختلافات، توافقات كثيرة بين المسلمين والمسيحيّين حول القضايا الجوهريّة المطروحة في مسألة صفات الله وفي مسألة الثالوث. وتمثّل هذه التوافقات أرضا مشتركة أكثر ممّا يعتقد عادة المسلمون والمسيحيّون".[1]

في هذا السياق لا بدّ أن ننتبه إلى أهميّة قول الأشعري ودراساته في المذهب السنّيّ، إذ تمثّل التعاليم الأشعرية أقرب التعاليم للإسلام الراشد.[2] ورغم ذلك لا يهتمّ عامّة المسلمين بأكثر العناصر أهمية في مسألة الذات والصفات. "إن من النتائج الأساسيّة الهامّة في قول الأشعري... قضيّة الصفات الإلهيّة التي تجد أصلها في أسماء الله الحسنى في القرآن، وعلاقة هذه الصفات بالجوهر الإلهي. فإذا كان الله قادرا، عالما، حيّا، فهل يعني هذا أن لله القدرة والعلم والحياة؟ وهل اكتسب الله هذه الصفات في الزمن أم أنّها أزليّة فيه؟ ثم إذا كانت قدرة الله وعلمه وحياته أزليّة، فهل يعني هذا أن الله هو قدرته وعلمه وحياته أم أنّها شيء آخر يختلف عن جوهر

---

[1] **كامنغ، يوسف،** *صفات الذات في قول الأشعري وإمكانية توافقه مع القول المسيحي*، بحث في جامعة ييل،2001، ص 53.

[2] قال الخطيب البغدادي «أبو الحسن الأشعري المتكلم صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة، والجهمية، والخوارج وسائر أصناف المبتدعة. إلى أن قال: "وكانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم». وجاء في الديباج المذهب "كان أبو الحسن الأشعري في ابتداء أمره معتزلياً، ثم رجع إلى هذا المذهب الحق، ومذهب أهل السنة فكثر التعجب منه وسئل عن ذلك فأخبر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان فأمره بالرجوع إلى الحق ونصره، فكان ذلك والحمد لله تعالى". انظر **الخطيب البغدادي**، *تاريخ بغداد*، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1422هـ/2002م، ج 13، ص 260؛ **ابن فرحون**، برهان الدين اليعمري، *الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب*، تحقيق محمدالأحمديأبوالنور، دار التراث للطباعة والنشر، القاهرة، ج 2، ص 95؛ **ابن كثير**، *طبقات الشافعيّين*، تحقيق أنور الباز، دار الوفاء، المنصورة، 2004، ص 209.

الإله؟".[3] فعلينا أن نسعى في هذا المقال إلى معرفة ما هو قول الأشعري في الصفات، وما هي الأسباب التي دفعته إلى ذلك القول.

في تحديد المفاهيم

في البداية، لا بدّ أن نعرّف بالمفاهيم العربيّة المرتبطة بموضوع: الذات (وتترجم عادة بـ"الجوهر")؛ ونفس (وتترجم عادة بـ"هو ذاته أو عينه")؛ وصفات (انظر المناقشة لاحقا)؛ ومعنى (الواقع/الشيء). وقد قرّر السيّد كامنغ أن يترك مصطلح "صفة" دون ترجمة لأن الكلمات المقترحة (نعت، واقع، وحدة، أقنوم) لا يمكنها أن تعبّر عن مقصود الأشعري. "إن "صفات الذات" هي الصفات التي تتعلّق بالله دائما دونما الرجوع إلى النظام الزمني المخلوق. وإن "صفات الفعل"[4] هي الصفات التي تتعلّق بالله فقط حينما يكون في علاقة بمخلوقاته. وحينما يتكلّم الأشعري عن صفات الله دون تحديد المقصود من كلامه فهو يشير عادة إلى صفات الذات. ويعرض الأشعري في مناسبات متعدّدة قائمة للصفات المنعلّقة بالذات وهي العلم، والقدرة، والحياة، والكلام، والإرادة، والبصر، والسمع".[5]

السياق التاريخي

يقول العالم نعمان الحق بخصوص هذا الاختلاف التاريخي بين المتكلّمين: "وتعتبر المعتزلة في هذه المسألة أن كلمة الله، والمقصود بها هنا تحديدا القرآن، لا يكون إلا عرضا بالمعنى الذي حدده أرسطو أي أنه صفة غير جوهرية .وكلام القرآن كغيره من الكلام يتكوّن من أحرف مرتبة بتسلسل وأصوات تلفظ بتمايز، وهو مخلوق في هيكل جسماني معين واعتبروا أنه عندما يخلق الله كلمة ما في هيكل ما، سيكون هذا الهيكل وسيلة الكلام أو التواصل ولكن الناطق ليس من يسكن فيه الكلام ولكنه هو من ينتج الكلام .ويعبر القرآن عن كلام الله بواسطة الحِبر الذي يجسد كلامه والورق الذي كتب عليه الكلام أو بواسطة اللفظ الصوتي لكلامه وكل هذه الأشياء عرضية، هكذا يأتي كلام القرآن بالحبر الذي يجسد من خلاله كلامه وبالأوراق التي كتب عليها كلامه وبهذا المنطق يفقد القرآن قدسيته وألوهيته[6]."

لقد اعتبر قول الأشعري ردّ فعل ضدّ فرقة المعتزلة التي انتهى بها الأمر إلى أن أُعْتُبِرَتْ فرقة ضالّة"[7]

ويضيف نعمان الحق: "المدرسة المعاكسة في علم الكلام الإسلامي هي المدرسة الأشعرية،

---

[3] **كامنغ**، ص 2.

[4] من صفات الفعل الكريم، العادل، الحليم، أو الكرم والعدل والحلم انظر **الأشعري**، ص 178 وما بعدها، وص 506 وما بعدها، و530.

[5] **كامنغ**، ص 7. يطلق على صفات الجوهر عبارة صفات الذات أيضا انظر **الأشعري**، *مقالات الإسلاميّين*، صحّحه هلموت ريتر، دار فرانز شتايز، فيسباد، 1980/1400، ص 92، و486، و506، و527.

[6] **نعمان الحق، س.**، حالة البشر فيا لإسلام،ص 167 وما يليها من كتاب
الحالة البشرية : كتاب صدر في مشروع فكر الدين المقارن،المحرر Robert Cummings Neville، جامعة ولاية نيويورك. 2001

[7] **الأشعري**، *رسالة إلى أهل ثغر بباب الأبواب*، تحقيق عبدالله شاكر محمد الجنيدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1413، ص 14، ص 23، وص 119؛ انظر أيضا **التميمي**، محمد بن خليفة، *مقدمات في علم مقالات الفرق*، غراس، الكويت، 2003/1423، ص 33.

وهي ترفض نظرية خلق القرآن. لكن كلمة الله خالدة خلود الله...غير أن الأشعرية وجدوا لأنفسهم وسيلة للهروب من الاعتراف بأن نص القرآن المكتوب أو المقروء خالدو هذا يعتبر شركا. وبالتالي فهم يميّزون بين كلام الله القائم بذاته الذي لمينطقب هو بين التعبير عنه بواسطة أحرفو أصوات مجسّدة .والأوّل (كلام الله) خالد بما أنه صفة من صفات الله ولكنه ليس إلها منفصلا عن الله أو إله إلى جانب الله. والثاني (الأحرف والأصوات) هي المخلوق والنسبي.
بالنسبة إلى مسألة عدم خلود تجسيم القرآن في أصوات وأحرف مادية، فقد وجد الإسلام التقليدي المتطوّر حلاً لهذه المجادلة باختصار الموضوع بأن الكتاب هو بمثابة ظهور رسالة الله النهائية في التاريخ. وعلى الرغم من أن القرآن مكتوب بأحرف وكلمات تتضمّن أصواتا وأحرفا وهي ليست خالدة وليست إلهية، ولكنها تحمل بطريقة فريدة وغير قابلة للتغيير ما هو خالد لأنّ رسالة الله في الحقيقة خالدة باعتبارها صفة من صفات الله."[8]

مقالة الأشعري من خلال كتبه:

يحيل كامنغ على كتب الأشعري الخمسة وعلى مصدر آخر إضافي. ويلخّص بذلك "أهمّ النقاط في قول الأشعري في الصفات وعلاقتها بالجوهر الإلهي كما يلي:

1. لله سبع صفات وهي العلم والقدرة والحياة والكلام والإرادة والبصر والسمع. وهذه القائمة ليس بالضرورة منتهية فلله صفات ليست مذكورة فيها.[9]
2. وهذه الصفات ليست مجرّد كلمات، إنّها حقائق فالله عالم بعلمه، قادر بقدرته، حيّ بحياته.[10]
3. وهذه الصفات أزليّة وليست مخلوقة.[11]
4. إنّها ليست جوهرا وهي ليست شيئا آخر غيره.[12]
5. بل بالعكس إنّها أشياء أزليّة في جوهره.
6. يذكر القرآن أن علم الله وكلمته لهما نوع من التأثير على الخلق. فالله يخلق بـــــــــهما.[13]

إمكانيات التشابه مع العقيدة المسيحيّة

ويشرح كامنغ قائلا: "هكذا إذن فإن قدرة الله، وعلمه، وحياته، حقائق أزليّة كانت ولا تزال قائمة في الله. فهي ليست ذات الله، وليست شيئا آخر غير الله، بل هي أشياء أو حقائق أزليّة قائمة في ذاته. إن هذا الوصف لما هو الله شبيه جدّا بالعقيدة المسيحيّة في الثالوث التي عرضها الآباء

---

[8] في المرجع نفسه.

[9] كالعزّة والعظمة والجلال والكبرياء والربوبيّة والقهر... انظر **الأشعري**، *مقالات الإسلاميّين*، ص 177، وص 298.

[10] **الأشعري**، *الإبانة عن أصول الديانة*، تحقيق فوقية حسين محمود، دار الأنصار، القاهرة، ط 1، 1397، ص 148-149، وص 181؛ *مقالات الإسلاميّين*، ص 37، وص 70، وص 168، وص 485...

[11] **الأشعري**، *رسالة إلى أهل الثغر*، ص 56، وص 122، وص 124؛ **الأشعري**، *مقالات الإسلاميّين*، ص 171 وما بعدها، وص 547.

[12] المرجع نفسه.

[13] **كامنغ**، ص 38. من الآيات التي تصف فعل الخلق ما جاء في القرآن من فعل الكينونة يقول تعالى {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: 47]، ويقول {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} [المائدة: 97 - 99].

والعلماء والكتاب المسيحيّون... بعض المسيحيّين اقترح ببساطة أن "قدرة" الله ليست إلا الأقنوم الأوّل من الثالوث، وأن "علم" الله ليس إلا الأقنوم الثاني من الثالوث، وأن "حياة" الله ليست إلا الأقنوم الثالث من الثالوث".[14] ثم اتّجه كامنغ بعد ذلك لبيان تشابهات أخرى في الأفكار واللغة.

رأي مفكّرين آخرين في هذا التشابه

ويؤكّد كامنغ: "هنالك قائمة طويلة متنوّعة من الباحثين، قدامى ومحدثين، مسلمين ومسيحيّين ويهود، لاحظوا هذه الموافقات وعلّقوا عليها...[فـ]من النصوص القديمة التي قارنت قول الأشعري في الصفات بالعقيدة المسيحيّة كتبها منتسبون إلى مذاهب (قد انقرضت اليوم) تعارض الأشعريّة وقد رفضت هذه المذاهب القول الأشعري والعقيدة المسيحيّة لأنّهما يعبّران عن العقيدة عينها".[15] ونستطيع أن نعرض ما قال بعض الباحثين الآخرين، سواء كان قولهم إيجابيّا أم سلبيّا، وذلك لمعرفة ما إذا كان للقول في الصفات القدرة على تأسيس حوار أفضل بين العقيدة الإسلاميّة والعقيدة المسيحيّة حول الألوهيّة.

فقد علّق الشهرستاني قائلا: "أكّد أبو الهذيل هذه الصفات وجوها للذات. فهي بعينها أقانيم النصارى...."[16]

ونرى في الحوار بين الكندي والهاشمي الذي حصل في بلاط المأمون في القرن الثالث للهجرة كيف عبّر الكندي عن التقريب بين الفكر الإسلامي والفكر المسيحي في هذا المجال[17] كما نرى بعد ذلك بقرون كيف علّق الرازي على إمكانية وجود مفهوم توافقي بين العقيدتين: "واعلم أن مذهب النصارى مجهول جداً، والذي يتحصل منه أنهم أثبتوا ذاتاً موصوفة بصفات ثلاث. إلاَّ أنهم سمُّوها صفات، وهي في الحقيقة ذوات قائمة بأنفسها. فلهذا المعنى قال: ولا تقولوا: ثلاثة. انتهوا. فأمّا إن حملنا الثلاثة على أنهم يُثبتون صفات ثلاث فهذا لا يمكن إنكاره. وكيف لا نقول ذلك، ونحن نقول: هو الله الملك القدوس السلام العالِم الحي القادر المريد. ونفهم من كل واحد من هذه الألفاظ غير ما نفهمه من اللفظ الآخر. ولا معنى لتعدد الصفات إلاَّ ذلك. فلو كان القول بتعدّد الصفات كفر، لزم ردّ جميع القرآن، ولزوم ردّ العقل، من حيث نعلم بالضرورة أن المفهوم من كونه تعالى عالماً، غير المفهوم من كونه حياً."[18]

الاختلافات الممكنة بين العقيدتين

ويناقش كامنغ أربع نقاط اختلاف بين العقيدتين، ولكنّه يوضّح أنّها قضايا خاصّة بعلم الكلام المسيحي وليست متعلّقة بعقيدة الثالوث (مثل مسألة التجسّد). وينهي كامنغ هذا الفصل بتوصيف هامّ يخصّ المفاهيم: "إذا كنا سنلقي بالتعابير المجازيّة عند الحديث عن الله عرض الحائط، فإن السبيل الوحيدة لفهم عبارة "ابن" هي أن نقول إن الله قد اتّخذ فعلا زوجة وأنجب فعلا ابنا إنجابا

---

[14] **كامنغ**، المكان نفسه.

[15] **كامنغ**، ص 40، 42. انظر **ابن حزم**، *كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل*، مكتبة المثنى، بغداد، 1964، ج 1، الفصل 1، ص 50 و55.

[16] **الشهرستاني**، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، *الملل والنحل*، مؤسّسة الحلبي، د.ت.، ج 1، ص 50؛ انظر الطبعة الأنجليزيّة **الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم**، *كتاب الملل والنحل*. المحرر William Cureton، لندن، Society for the Publication of Oriental Texts, 1842-1846, ج 1 ص 34.

[17] *رسالة عبد الله ابن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح ابن اسحق الكندي*، لندن، جلبرت ر. رفنغتن، 1880، ص 32-35.

[18] **الرازي**، *مفاتيح الغيب*، م. خليل محي الدين الميس، بيروت، دار الفكر 1990، ج 6 ص 118.

جسديّا. إن قولا كهذا هو عند المسلمين وعند المسيحيّن كفر صراح ومستفزّ. وسيتّفق المسيحيّون عندئذ مع الأشعري في الآية القرآنيّة:{سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} [الإسراء: 43]."[19]

الخلاصة

ويخلص كامنغ في الأخير قائلا: "إن المسيحي العادي اليوم له فهم سطحي جدّا للثالوث، والمسلم العادي اليوم له هو أيضا معرفة فقيرة جدّا بقول الأشعري في الصفات. ولكنّهما قد يتفقان في أمر وهو أنّهما يختلفان في موضوع عقيدتهما في الله وأن الاختلافات عميقة وكبيرة ولا يمكن تجاهلها. ولكني أعتقد ان دراسة دقيقة للعقيدتين تشير إلى أنّهما متقاربان أكثر ممّا يُتَصَوَّرُ. إن الاختلافات التي طرحها الأشعري حول الحلول/التجسّد، وحول استعمال كلمة "ابن" هامّة، ولكنّها متعلّق بالعقيدة المسيحيّة وليس بالثالوث في حدّ ذاته. إن السؤالين اللذين يطرحهما الأشعري والمتعلّقان خصوصا بالثالوث (على سبيل المثال 1.القول بالتماثل بين "الكلام" و"العلم"، والتأكيد على ثلاثة أقانيم فقط، و2. التأكيد الظاهر عند الأشعري أن حياة الله لا يمكن أن تسمّى روحا)[20] هما في رأيي قابلان للتقريب. وبعيدا عن هذين الاختلافين فإن مواطن اللقاء بين المسلمين والمسيحيّين حول القضايا الجوهريّة المتعلّقة بقضية الصفات وعقيدة الثالوث كثيرة بعكس ما يتصوّره عادة المسلم والمسيحي."[21]

---

[19] **كامنغ**، ص 52.

[20] **الأشعري**، *مقالات الإسلاميّين*، ج 1، ص 337.

[21] **كامنغ**، ص 52-53.